

السبت 04-09-2010

1100- "الموت لا يجهز على الحياة": نجيب محفوظ

تعتة الدستور

أول أمس كانت الذكرى الرابعة لرحيله، فهل رحل أصلاً، أليس هو القائل: "الموت لا يجهز على الحياة، وإلا أجهز على نفسه" (ملحمة الخرافيش ص 66).

أليس هو الذى كتب الفقرة التالية فى أصداء السيرة (فقرة 58)

همسة عند الفجر

"تسير وأنا فى مقدمتها أسير حاملاً كأساً كبيرة مترعة برحيق الحياة. فى مرحلة حاسمة من العمر. عندما تنسم فى الحب ذروة الخيرة والشوق، همس فى أذن صوت عند الفجر.

"هنيئاً لك فقد حم الوداع" وأغمضت عيني من التأثر فرأيت جنازتي".

يا ترى هل التقيت شيخى طاغور هناك؟ وهل كرر طاغور عليك شعره هذا؟

"قالت لى الغمامة: سأمضى

الليل: سأغيب فى الفجر المضطرب

وقال الألم: سألوذ بصمت عميق كآثار خطاه

وأجابت حياتى: سأموت وأنا فى منتهى الكمال

وقالت الأرض: إن أنوارى تلثم أفكارك فى كل لحظة

وقال الحب: وتمضى الأيام ولكنى أنتظرك

وقال الموت: سأقود زورق حياتك عبر البحر"

لا أشك فى أن شيخنا قد اختار الموت راضياً حين شاء الحق تعالى أن يختاره، كما أنى لم أشك أن محفوظاً قد اختار الحياة

طول الوقت، حتى لحظة اختياره الموت، اختار الحياة كأننا بشرها جسديا متحركا حاضرا .. وأيضا اختارها أكثر: كيانا فاعلا هميلا مضيئا بما تيسر له، فأبدع فيه. وحين تبين أن الله تعالى قد أراد أن يجعل الأدوات أضعف فأضعف، والجمال أضيّق فأضيّق، اختار شيخنا أن يقولها بملء وعيه أن "كفى". لم يكن اختيار الحياة بديلا عن اختيار الموت، كان اختياراً متداخلا، متكاملًا مكملاً. حين آن الأوان: قالها شيخنا بملء وعيه أن: "كفى"، ومضى إليه راضيا مرضيا، ومع يقيني أن هذا حقّه بلا منازع، فقد رحل أعاتبه وأنا أرثيه بقصيدتي: "لم قلّتها شيخى: "كفى" ؟

من ذا الذى يرغب في فراق من يجب؟

(أعيد) في أوائل معرفتي به شخصيا، كان الرئيس فرانسوا متران قد تأكد من قرب النهاية بعد تهادى غول السرطان، سأله أحد الصحفيين بعشم (أو وقاحة) عن توقعاته بعد الموت، وعن مدى إيمانه أو رغبته في الخلود في الجنة، فأجاب مجدية وبكل شجاعة، أنه يرى أن الخلود في الجنة بلا نهاية هو أمر يدعو للملل، نقلت للأستاذ هذا التصريح متعجبا، وربما مُعجبا بشجاعة متران ومساحة الحرية التي تسمح بمثل هذا التصريح، أترق الأستاذ رأسه مليا، صمّت منتظرا، وطال الانتظار حتى نبهته بكل العشم أني أحتاج إلى تعليقه، قال: "أنا لا أوافقك"، قلت له "ألم تلاحظ شجاعته حتى لو اختلفنا معه؟ ألسنا نفتقد هذه المساحة من الحرية التي يتحركون في إطارها بلا سقف يُقَرّمهم؟، قال: "ليكن، لكنك تسأل عن رأيي فيما قال، لا عن ما أتاح له إبداء رأيه". فأردفت أني ما زلت أنتظر تعليقه والسلام، قال بعد قليل: أنا لا أوافقك. إسمع يا سيدي: أنت حين تحب شخصا ألا تكون حريصا على البقاء معه أطول مدة ممكنة؟ قلت نعم. قال: هل يمكن أن يخطر ببالك ما هو ملل وأنت تحبه فعلا ؟ قلت: لا، قال، فإذا كنت تحب الله سبحانه، فهل تشيع من قربه مهما امتد الزمن بلا نهاية، أم أنك تزداد فرحة وتجددًا طول الوقت؟"

علّمني الدهر

قبل الحادث النذل بعام إلا قليلا نشر محفوظ في الأهرام قصة قصيرة بعد أن غير الأهرام عنوانها دون استئذانه - كما أخبرني شيخي شخصيا!!- حتى أصبح عنوانا ضحلا هو "علّمني الدهر"، وصلني من تلك القصة الباكرة أنه يعد نفسه "بهدوء" للرحيل، وإن استغرق ذلك أكثر من اثني عشر عاماً.

تبدأ القصة القصيرة هكذا: " أن لنا أن نرحل" إلى أن قال:

"... نصح الطبيب بذلك وإذا نصح الطبيب وجبت الطاعة , كانت إقامة طيبة , وشقة أنيقة".

ثم تمضى القصة في اتجاه أن الساكن الجديد الذى سيحل محل الراحل هو أولى بالمسكن، إلى آخر ما يشير إلى أن البقاء هو للأكثر فتوة، وأوفر شبابا وأصغر سنا.

ثم تنتهي القصة وهو يصعد إلى القطار، ليعلن رضاه :
- من الإنصاف أن أذكر أنها (كانت) إقامة جميلة وأنها تستحق الشكر"

كتب محفوظ كل ذلك قبل الحادث النذل، ثم رحل بعد أكثر من عقد، فهل رحل أم انتقل، أم عاد، أم أنه باق بيننا، لكننا فقط لا نراه مجسداً.

وبعد

يا شيخى الجليل، هل تريد منى أن أمرّ عليك الليلة في الثامنة أم الثامنة والرابع؟

نعم؟!؟! نعم!

ليس بعد؟!؟! إذن منى؟

في انتظار ردك والله العظيم.